الفصل السادس عشر

نداء صامت

ظلام دامس وعيون متقدة، هذا ما استطاع طارق تمييزه فور استفاقته من إغماءه متأوهاً، اضطرب من الظلمة أولاً، ثم من العيون التي تعود لجموع الرجال الغاضبين وهم يحيطون به من كل جهة، ويحملون عصيهم في أيديهم يلوحون له بها في توعد وتهديد، الشر والتحفز للانقضاض بادٍ جلياً على مظهرهم، ارتعب وارتجف، ثم قالوا له بنبرة مخيفة وبفم واحد:

-لن تنجو هذه المرة يا سيد طارق.

دنوا منه أكثر فصاح مذعوراً وهو يحرك يديه محاولاً إبعادهم:

-ابتعدوا عني، ابتعدوا عني.

هب من سريره بسرعة مع علو صراخه، جسده يرتجف بعنف، وعيناه جاحظتان ووجهه شاحبٌ غارق في العرق التي تصبب من جبينه، أسرع عبد الكريم يمسك به من كتفيه بقوة ويقول مهدئاً:

-أنت في أمان يا ولدي، اهدأ.

لكن عيناه أوحتا له بعدم عودة وعيه، جسده لا يزال يرتجف ويصرخ:

-أولئك الرجال، سيقتلونني يا أبي، إنهم...

قاطعه حازماً وبصوت صارم:

-اهدأ، أنت في أمان.

مع الهتاف الثاني انتبه لما حوله، ألفى نفسه بالمستشفى وفي غرفة خاصة راقداً على السرير، أنوار مصباحي سقفها متقدان، فالليل لا يزال يرخي أستاره، وعن يسراه جلست والدته ورُبا على كرسيين قريبين منه، وعن يميناه عبد الكريم الذي نهض من كرسيه لحظة اضطرابه. تذكر كل ما حدث في برهة، وإن ما رآه قبل لحظات لم يكن إلا هذياناً، كان يطالع ما حوله رغم أن رجفة الرعب ظلت متأصلة في جسده، وصدره لا يزال يعلو ويهبط بسرعة لمدة، وضربات قلبه لا تزال متسارعة من شدة خوفه، أمسكت عائشة بيده برفق، وهي تقول بلهجة اشفاق وقلق وبعين دامعة:

-حمداً لله على سلامتك يا بني.

لم يجبها بشيء، وإنما وضع يده الأخرى على صدره محاولاً تهدئة الثورة المضطربة في صدره، والرعشة التي دبت في أوصاله، ومعها أحس بآلام الضربات التي ألمت بجسده كله، وأقساها التي أصابت رأسه، تأمل نفسه ورأى ذراعيه وجذعه العاري قد تلونا بالكدمات، أسبل جفنيه وهو ينقل يده إلى رأسه ليهون مطارق الألم التي تعتمل عليه، وقعت على الضمادة التي أحاطت بمحيطه، تملكه الإعياء كما تملكه الغضب مما أقدم عليه الرجال، وثارت أعماقه، قرر أن يصمت لفترة ويرتاح أولاً، لولا أن انتبه لعائشة وهي تنظر لوالده وقد عقدت حاجبيها وقالت غاضبة:

-يجب أن يدفعوا ثمن اعتدائهم على ولدي، لن أسكت أبداً.

-ابنك أخطأ يا عائشة واستحق ما ناله.

قالها ببرود فاجئهما، فردت محتدة:

-ما هذا الذي تقوله وقد...

أجابها حازماً:

-ما حدث لم يكن إلا ردة فعل على تصرفات ابنك الرعناء، لقد رأيت بأم عيني كيف أهان شادي أمامي، ومن قبله كان يتطاول على النازحين بألفاظ لا تليق، ومع ذلك تجاوز الشاب كل ذلك وحاول الدفاع عنه وحمايته من أذى أولئك الرجال، ابنك سليط اللسان لا يراعي مشاعر أحد، والظاهر بأن تكبره وغروره هذا لن يتغيرا أبدا.

أبعد طارق يده عن رأسه، ونظر إليه وهو يقول بعصبية:

-لم أقل إلا الحقيقة.

رد عليه بألم وعصبية وهو يهز يده:

- أية حقيقة تقصد؟ حقيقة الحرب!! تأمل ما أصاب الناس قبل أن يؤول حالهم إلى ما آل إليه ويطلبوا المساعدة، تأمل حالهم قبل أن تثرثر كلاماً عبثاً لا فائدة منه ولا اتزان فيه، الحرب أوجعتهم، الحرب أثخنت أجسادهم جراحاً وأفقدتهم الأهل والديار، ولم تكتفِ بهذا أيضاً؛ بل داست كرامتهم وأذلتهم وأدمت قلوبهم، ثم تأتي أنت لتقيح جراحهم! أين وعيك يا طارق؟ أين قلبك؟ ألا تعي وتشعر بمعاناة غيرك؟!

ارتبك لانفعاله فارتدت الكلمات بحلقه وأسكتته، بينما نهضت عائشة وقالت في عصبية مماثلة:

-مهما كان حالهم، ما كان عليهم أن يقدموا على أذية ولدي.

عقد حاجبيه وهو يرد عليها:

-قلتُ لك ما حدث بسبب ما بدر منه إزاءهم.

قطع طارق صمته وهو ينظر له نظرة عتب ويقول في حزم وهدوء:

-أبي، لِم تدافع عنهم؟

أيدت قوله وهي تقول بسرعة:

-صحيح، لِم تدافع عنهم؟

أسبل جفنيه وتنهد وهو يهز رأسه في يأس، فكل ما قاله لم يصل لوعيه أبداً ولا حتى لوعي عائشة، جدار ثخين من الكبر أعماهما عن إبصار حال من هم حولهما، وغرور رفعهما فلا يران الناس إلا أصغر منهما شأناً وأحقر مكاناً من أن يحمل همهم أو يدنو منهم، خلقٌ ورثه عنها وعجز هو عن تغييره، قال في ألم وهو يربت على فخذيه:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، لستُ أدافع عن أحد بقدر ما أتحسر وألوم نفسي على تقصيري في تربيتك بسبب عملي، وترك أمرك لوالدتك.

نهض من مكانه وهم ليغادر الغرفة، فهتفت به:

-لا تتهرب من الحديث، لا بد أن تفعل شيئاً، محال أن تسكت عمن آذى ولدك.

نظر إليها وقال:

-سأحل هذا الأمر بطريقتي.

شعر طارق بالضيق بينما عادت تقول حين رأته لا يزال يبتعد:

-إلى أين؟

-أريد الاطمئنان على شادي.

قفزت رُبا من كرسيها اقتربت منه وهي تقول في رجاء:

- أبي، أريد أن آتي معك.

ابتسم لها وهز إصبعه وهو يقول منبهاً:

-حسناً رُبا؛ ولكن دون أن تنطقي بأي كلمة، سترافقينني بصمت إلى أن نعود إلى هنا.

ابتسمت وهزت رأسها في حماس وسلمت يدها إليه وخرجا ، بينما زفر طارق في ضيق وهو يعرض بوجهه عن الباب ويقول:

-هه.. يهتم لأمر شقيق تلك المزدوجة، ولا يهتم لأمري.

دهشت عائشة للكلمة وقالت:

-مزدوجة!! ماذا تقصد؟

هز يده وقال:

-انسي ما قلته يا أمي، المهم أني أريد المغادرة من هنا.

فوجئت لطلبه، وقالت حازمة وهي تشير بيدها:

-لا، لا يمكنك ذلك، ستبقى ليوم تحت الملاحظة كما أمر الطبيب.

عقد حاجبيه وصاح غاضباً:

-لن أبقى ساعة واحدة هنا.

ربتت على كتفه في رفق، وقالت مهدئة:

-اهدأ يا ولدي ولا تغضب من حديث أبيك فسلامتك هي الأهم، يجب أن تستر....

قاطعها وهو يصيح بأعلى صوته ويضع يده على رأسه في ألم:

-قلت لن أبقى، يعني لن أبقى.

ارتبكت لعنفوان انفعاله، فقالت:

-حسناً، استرح بعض الوقت ريثما يعود والدك ويرتب إجراءات الخروج.

ازداد غضبه لكنه لم يجد بداً من الامتثال لما قالته، وعاد ليستلقي على فراشه، ولشدة إعيائه غلب النوم غضبه فسقط جفنيه واستسلمت عيناه ليعقبها استسلام جسده كله.

ألم وحزن وغضب كانا يتملكانها، كانت تجلس على كرسي إلى جواره تتأمل حالته، فقد كان مرقداً على سرير بحجرة ترقيد خاصة موجودة بنفس الصف حيث تقع غرفة طارق ويفصلهما ثلاثة غرف أخرى، ظل شادي غائباً عن الوعي، واهن الوجه، وقد لفت جبيرة كبيرة كتفه الأيسر وأجريت له عملية بعد كسرٍ تعرض له بسبب اصطدام السيارة به، وضمادة أحاطت برأسه هو الآخر موارية إصابة أقل خطورة من الأولى، وكانت مها إلى جانبها وحزنها لا يقل عنها، ودموعها مدرارٌ على خديها.

للحظة تملكها شيء من الخوف، تذكرت ما رواه لها عما حدث معه في المقاومة ومع رفاقه، لم تدر كيف ولِم تخيلت ذلك الآن، هل تخيلته جريحاً بسبب مشاركته لرفاقه؟ تمثلت أمامها تلك اللحظة التي قرر فيها الانضمام لهم وتلبية نداء الأرض، والتفاصيل المرعبة التي رواها لها.

نداء الأرض ليس كأي نداء، نداء صامت يناجي القلب، يلامسه، تهز به أبناءها الذين احتضنتهم في كنفها طوال عمرها فانتمت جذورهم إليها، ترسل رُسلها على هيئة مشاعر أو بشر، فمن لباها آمن بها إيماناً عميقاً، ومن أعرض، أغدق عليها بأنهار الدماء واستباح حرمتها، وانتهك أعراض أبناءها، أو صم أذنيه عنها ورحل غادراً بها.

منذ سقوط العاصمة في أيدي المتمردين وشادي وأهله مثل بقية أهل عدن يتابعون في توجس وقلق وما يصلهم من أنباء عبر التلفاز ومواقع التواصل، وبان لهم أن أطماع الإنسان ليس لها حدود مهما كان انتماؤه إن لم تردعه مبادئ دينه.

ارتجت المحافظة وخاصة مدينة (خورمكسر) على إثر الاشتباكات التي حدثت في مطارها بين القوات العسكرية المتمردة بمعسكر (الصولبان)، وأخرى بمعسكر (بدر) تحت لواء السيادة الحالية للبلاد، بدا أمام الأهالي بأن حلبة الصراع على وشك أن تصل إليهم، فقرر بعضهم المغادرة منها، إذ إن المنطقة حول المحافظة برمتها لم يكن يهدأ بها أفواج القتال ولا سيل لعاب الجشع السياسي.

وبالفعل ولم يكن هذا ببعيدٍ أبدا.

بدأ مد وجزر المعارك بمعاودة الهجوم على المتمردين في معسكر (الصولبان) وبعثرة رجاله وتمزيق كيانه فقتل من قتل وأسر آخرين، وكان لأهالي المدينة مشاركة في حملة الهجوم.
هنا، بدأ استنجاد الأرض يرتفع ليصل لأذني شادي ويلامس قلبه، يحثه على الاستجابة له، وتعاظم حين ارتفع المد مجدداً لتولد الهزيمة الانتقام بهيئة وجوه أخرى، وجوه رفعت شعارات وتعللت بدعاوى تحل لهم الغزو والقتل والنهب، فاستباحوا حرمة السماء بطائراتهم التي لم تحمل إلا ما يبيد الأرض وتحطم معاقل القيادة بخور مكسر، ليتم ردعها عند أعتابها وترحل.
عادت نداءات الأرض لترتفع وتعلو استغاثاتها، بأن العدوان لابد آت من جديد، استغاثت مجدداً لتستنهض أبناءها.

وصله النداء ظهيرة الثالث والعشرين من شهر مارس على هيئة اتصال من صديقه رضوان، فرد عليه في حزم:
-أنا معكم، لابد أن يعرفوا بأن عدن ليست لقمة سائغة لا للمتمردين ولا لغيرهم.
رد عليه بفرح:
-كنت أدرك بأنك ستوافق، نحن في حاجة لكل يد تستطيع الدفاع عن المحافظة.
رد عليه في ضيق:
-وهل كنت تشك في موافقتي؟

أجابه في نبرة محذرة:

-لنكن واقعيين يا شادي، أنت المعيل الوحيد لأهلك، والانضمام للمقاومة يعني أن يكون الحديث عن الموت شيئاً عادياً... شادي، نحن لا ندري ماذا سنواجه، علينا أن نكون مستعدين لأسوء الاحتمالات.

صمت للحظات يفكر في كلماته، خوض المعارك يعني أن ترجح كفة الموت أكثر من الحياة، أن يكون أقصى همك كيف تحقق هدفك بغض النظر عما قد يصيبك، متجاهلاً قيمة حياتك، متجاهلاً من هم خلفك، أرعبت الفكرة عقله، وكادت تجعله يتردد في الإجابة ولولا النداءات الصامتة التي مست قلبه قبل اتصال رفيقه، فقال في حزم:

-اطمئن، سأرتب أموري وأقاتل معكم.

بانت السعادة من كلمات رضوان، وهو يقول:

-على بركة الله، سأمر عليك في مساء الغد لأوضح لك بعض الأمور.

ابتسم وقال:

-أعرف كل شيء يا رضوان، فأنا متابعٌ لما يجري في الساحة.

-ليس كل شيء يُذاع يا صديقي، المقاومة رفعت ألويتها في كل مدينة من عدن، ومنها المُعلا، في بداية الرحل إن شاء الله سآخذك لتجتمع بهم وتنضم إلينا، وقبلها لابد أن تعرف ما فعلناه، لذا سأشرح لك كل شيء في المساء.

رد عليه في عتب:

-ما فعلتموه؟ من دون أن تخبرني لأشارك معكم يا رضوان؟

هدأه وهو يقول:

-السرية مطلوبة في عملنا، فنحن لا نعلم أين يكمن أعداؤنا، لذا لم أخبرك من البداية.

هدأ قليلا ثم قال:

-حسناً، سأكون في انتظارك.

أغلق الخط وهو يعتقد بأن الأمور ستمضي وفق ما يريد؛ سيدع أمه وأخته تغادران مع أحد أقاربه الذين سيغادرون خارج عدن ليتمكن من المشاركة وقلبه مطمئن عليهما، فصفعه رفض أمه لقراره، رجاها، فأصرت على موقفها، حاول بنفسه والتجأ لخاله، ولم تفده محاولاته التي استغرقت اليوم كله في إقناعها، اهتز شيء في أعماقه، لم يكن يريد التراجع عما عقد العزم عليه مع صديقه، وفي الوقت ذاته لا يريد تركهما خلفه.

وفي اليوم التالي حاول معها، لكنه حين يأس نهض من مكانه بصمت، فأمسكت بيده وهي تقول في رجاء:

-لنرحل سوياً يا بني.

نظر مليا إليها، وقال في حسم:

-بل أريد أن أدافع عن أرضي يا أمي، وإن كنتِ مصرة على البقاء، ساندِيني في قراري هذا وارحلي مع خالي اليوم، وادعِ لي.

لم تجبه إلا بالدمعات وعانقته بقوة مغرقة وجهها في رائحة جسده، وكأنما تريد أن تبقيه إلى جوارها مدة أطول أو أن تحميه، لم تكن تدري أتحميه من قراره أم مما سيواجه؟

احتضنته حتى كادت تفيض منابع دمعه، هدأ نفسه بقوة وهو يقبل رأسها، ثم قال:

-لن أرحل اليوم بل صباح الغد.

أرسلته ومسحت دموعها وهي تقول والحزن يقطع كلماتها:

-لن أغادر من دونك، سأدعو لك ولكل رفاقك.

رضخ أخيراً لأمرها، وامتثل لنداء الأرض، وطلب منها أن تعد بعض حاجياته.

في المساء، أخذت ترتبها له في حقيبة صغيرة، وضياء تنظر إليها في صمت وتغالب عاصفة بفكرها؛ تريد البقاء أيضاً ولو كانت رجلاً لاتخذت قراراً مثل قراره، ولو كان الأمر بيدها لطلبت إليه البقاء، لا تريد رحيله وابتعاده عنهما، قاومت حزناً كبيراً أبت أن تظهره حتى لا تضعف حماسته، ظلت تدعو له دون توقف بأن يحفظه الله وينصره هو ومن سيكون معه.

وقدم رضوان في موعده، رحب به بحرارة، كان دائماً ما يرى الابتسامة منحوتة على وجهه المستطيل الشديد السمرة، وشفتيه الداكنتين اللتين اعتلاهما شارب خفيف، المرح دائماً يصدح من كلماته، كيف لا يعرف ذلك وقد قضى كل سنوات الدراسة الجامعية برفقته، ولم يتخرجا إلا منذ شهور قليلة في انتظار توظيفٍ وُعِدا به وهما من أوائل الدفعة. أما الآن، فتلك الابتسامة أصبحت خافتة وكأنه يبديها مجاملة، هل لما يجري حولهما سبب في ذلك؟

تساءل شادي في نفسه، وهو يدخله إلى حجرة الاستقبال التي لم تختلف في لون جدرانها وأرائكها عن الصالة، رآه يسير أمامه في خطوات واسعة بجسده النحيل غير المتناسق مع قامته الفارعة، بدا هزيلاً، سترته تتمايل كأنها ستطير في الهواء، كطرف العمامة المعقودة حول رأسه ولا يكاد يبان تحتها أثرٌ لشعره إلا ما بدا أسفل منها أمام أذنيه ومتواصل من الأعلى، شعر أسود قصير جداً استأنف طريقه نحو الأسفل مع لحية خفيفة امتدت على طول عظم فكه السفلي وذقنه، على خلاف سترته، فقد كانت فوطته المزركشة ملتصقة بنصفه السفلي وجزءها العلوي مخفي بأطراف السترة فوقها، سار بخفة رغم ثقل بندقيتي الكلاشنكوف التي يحملهما في ظهره والمسدس الصغير في حزامه، أختار الأريكة في صدر الغرفة وجلس، قال له شادي متسائلاً وهو يجلس على الأريكة المجاورة له:

-لِم تحمل بندقيتين؟ أتستعد للقتال الآن؟

ناوله البندقية وهو يقول بحزم، وقد عقد بين حاجبيه وضيق عينيه الواسعتين:

-هذه لك.

فخفق قلبه بعنف للحظات وهو يتناولها منه، ها قد بدأ من الآن، بينما تابع رضوان:

-غداً بإذن الله سأكمل بقية ذخيرتها لك دعها معك الليلة.

-تبدو جاداً جداً يا رضوان، أين ابتسامتك؟ لم أتوقع أن أراك بهذا الحزم والجمود ونحن لم نلتق منذ شهور بعد أن أنهينا دراستنا، ملامح وجهك مختلفة.

هز رأسه وهو يقول:

-ما بقلبي لن يتغير اتجاهك، فلا تغريك تغير ملامح وجهي، إني أحاول أن أعاند التغيير القادم من أعدائنا بقوة وأدافع عنه حتى لا يغير أعماقي، لذا أحاول أن أبدو حازماً.

فانتقل الحزم إلى وجهه وهو يقول:

-حسناً، ما هي الأمور التي ستوضحها لي؟

رد عليه بصوت أقرب للهمس:

-المتمردون سيحاولون السيطرة على كل بقعة استراتيجية مهمة في المحافظة، سيطروا على ميناء المدينة، لذا تجمع عدد من الرجال لتشكيل مقاومة المعلا قبل يومين، وحمل كلٌ منا سلاحه واستطعنا أن نطردهم وأسر من استطعنا، وغنمنا سلاحهم، المهم أن الميناء قد صار في أيدينا، وقوات الشرطة هنا الآن أصبحت تابعة لهم وتحاول التمهيد لدخولهم، علم أخي بذلك، فهو يعمل بالمركز وقد ادعى ولاؤه لهم، إنه يمهد لدخول المقاومة للاستيلاء عليه.

رد في صدمة:

-الشرطة!! لم يكونوا في خور مكسر وحسب؟!

-لا، بل هنا أيضاً ولا بد أنهم في بقية المدن، الليلة ستقوم مجموعته بالهجوم على المركز، والبقية سيقفون على كل حدود المدينة حتى يؤمنوها.

قال في سخط:

-أوغاد، ما يثير انزعاجي عدم وجود قوات الجيش لتدافع عن المدنيين.

رد عليه في سخرية:

-جيش!! هل تمزح؟ الكل تبعثر منذ الهجوم الذي تم على قصر الرئاسة بالمعاشيق، ربما بقي بعض الجنود للقتال، لكن الغالبية نفذوا بجلودهم لنواجه نحن كتائب المتمردين.

رد في أسى:

-بالفعل، المقاومون غالبيتهم مدنيون وفي كل المحافظات القريبة منا، لحج وتعز والضالع وغيرها.

-عدن هدفهم الآن، إن سيطروا على المطار فسيجدون قاعدة جوية تسهل هجماتهم، لذا هم الآن يقاتلون بشراسة للاستيلاء على قاعدة العند.

رد في صدمة:

-يالله، هذا يعني بأن أمر هجومهم علينا سيكون قريبا وكبيراً.

-بالضبط، لن ييأسوا، هؤلاء كالذباب، رغم كره كل العالم لهم ونبذه لأفعالهم إلا أنهم لن يكفوا، يحاولون الحصول على السلطة بالقوة، لهذا قلت نحن في حاجة لكل يد في استطاعتها القتال، لابد أن ندافع عن أرضنا بأنفسنا.

-حين تحدثت عن مقاومي المعلا قلت بأنهم مجموعات، هل هذا يعني أن المقاومة مقسمة؟

-نعم، المجموعتان اللتان ذكرتهما لك ستبقيان هنا، وثالثة ستذهب لمساندة المقاومة في خور مكسر وتمدهم ببعض ما لدينا من زاد ورجال، لا نريد لها أن تسقط في أيديهم.

-وماذا عني؟ أين موقعي؟

ربت على يده وهو يقول:

-ستذهب معي إلى خور مكسر، فأنا قائد المجموعة التي ستذهب إلى هناك، أريدك معي.

رد في دهشة:

-أنت... القائد؟!

ابتسم في ثقة وهو يقول:

-لا تندهش، فقد رُشحت لهذا لأن والدي كان عسكرياً قديماً، ورغم عدم انخراطي بالسلك العسكري أو الشرطة مثل أخي لكني تعلمت منهما بعض الأشياء في ذلك وسأفيدكم إن شاء الله.

بادله الابتسامة وهو يقول:

-وكل المقاومين مدنيين لا خبرة لهم في الأسلحة؛ لكن الهمة ورغبة الدفاع عن شرفهم وأعراضهم وأرضهم تحثهم وتحفزهم، لهذا سنكون بحاجتك فعلاً، أنا معك أيها القائد.

صافحه بقوة وحماس وشد على ساعده وهو يمنحه ابتسامة واسعة، ابتسامة ربما لن يراها مجدداً إلا بعد دحر الغزاة وظلمهم، ثم غادره ليتركه وحده، التقط البندقية من الأريكة وتأملها، لم يكن خبيراً في استخدامها إذ إنه لم يمكن يمتلك حتى بندقية صيد، فقط مجرد عبث بأسلحة رفاقه أثناء المناسبات والأفراح، أما القتال الآن فلا بد أن يستخدمها مهما كانت خبرته، ويتعلم كل ما واتته الفرصة ممن يملكون خبرة مثل رضوان.

ثم فجأة تذكر والدته وأخته...

سيتركهما خلفه، ماذا لو أصابهما مكروه بسبب رحيله وبقائهما هنا دون بقية أقاربهما؟ سيندم طول عمره إن حدث ذلك، لكنه يريد مساندة أبناء مدينته.

عاد التشتت يتسلل لفكره ويقض مضجعه، فبات ليلته قلقا عيناه تلتحفان السهاد.

*****